(١٥) الدر الثمين : ١٥٢.
(١٦) سيرة ابن هشام ٢ : ١٦٠.

من رحلة ابن جبير عن الحج

عبد الله المؤمن

هذهِ بعض اللمحات التي سطرتها رحلةُ ابن جبير ـ أبو الحسين محمد بن أحمد بن جُبَير الكناني، الأندلسي، الشاطبي، البلنسي. ولد في بلنسية. وسمع العلوم من أبيه في شاطبة، وأخذ القرآن عن أبي الحسن بن أبي العيش أثناء رحلته الثالثة الطويلة ـ بعد رحلتين قصيرتين ـ التي استغرقت من يوم الاثنين التاسع عشر من شهر شوال سنة ٥٧٨ هـ وختمها يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر محرم سنة ٥٨١ هـ، وقد استغرقت رحلته الحجازية ابتداءً من ليلة الجمعة الرابعة والعشرين من شهر ربيع الأول من العام ٥٧٩ هـ، وانتهاءً في يوم الأحد العشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة. أما مدة إقامته في مكة

فيصفها لنا بقوله:

«فكانت مدّة مقامنا بمكة، ـ قدسها الله ـ من يوم وصولنا إليها، وهو يوم الخميس ١٣ لربيع الآخر من سنة تسع وسبعين، إلىٰ يوم بإقلاعنا من الزاهرة، وهو يوم الخميس الثاني والعشرين لذي الحجة من السنة المذكورة، ثمانية أشهر وثُلث شهر، التي هي بحسب الزائد والناقص من الأشهر مئتا يوم اثنتان وخمسة وأربعون يوماً سعيدات مباركات....

ونحن بهذه اللمحات سوف نعود مع ابن جبير ؛ ولنرى معه أحوال الناس في ذلك الزمان، وحال العمران، وما وصفه لنا من مشاعر مقدسة وأنفاس متجهة وقلوبٍ خاشعة، وأيدٍ متضرعة.

آفة الحجّاج:

يصف لنا ابن جبير هذه الآفة، وهو في وصفه يضع الحقائق، ويوضح الواقع، ويبين كيف تعامل الإنسان في ذلك الزمان مع ما يواجهه من مصاعب.

فابن جبير ـ بعد أن يصل إلىٰ جدّة عن طريق البحر الأحمر، الذي كان يسميه بحر فرعون ـ يصف لنا طريقةَ ذهاب الحجّاج من جدّة وإليها عن طريق البحر، فيقول:

«والركوب من جُدّة وإليها آفة للحجّاج عظيمة إلا الأقل منهم ؛ ممن يسلمه الله ـ عزّ وجلّ ـ وذلك أن الرياح تُلقيهم ـ على الأكثر ـ في مراسٍ بصحارى تبعد منها مما يلي الجنوب فينزل إليهم البُجَاة، وهم نوع من السودان ساكنون بالجبال، فَيُكرون منهم الجمال، ويسلكون بهم غير طريق الماء، فربما ذهب أكثرهم عطشاً، وحَصَلوا علىٰ ما يخلّفه من نفقة أو سواها، وربما كان من الحجاج من يتعسّف[1] تلك المَجْهَلة[2] علىٰ قدميه فيضلّ ويهلك عطشاً. والذي

يسْلَم منهم يصل إلىٰ عيْذاب كأنه مُنْشَر من كفن، شاهدنا منهم مُدّةَ مُقامِنا أقواماً قد وصلوا علىٰ هذه الصفة في مناظرهم المستحيلة[٣]، وهيئاتهم المتغيرة، آية للمتوسمين. وأكثر هلاك الحجاج بهذه المراسي، ومنهم من تساعده الريح إلىٰ أن يحطّ بمُرْس عيذاب، وهو الأقلّ».

صفة جُدّة:

وبعد أن يصف ابن جبير في رحلته أهوال بحر فرعون ـ أي البحر الأحمر ـ ينتقل إلىٰ وصف مدينة جُدّة ـ بعد أن وصل إليها ـ فهو يقول في وصفها:

«وجُدّة هذه قرية علىٰ ساحل البحر المذكور، أكثر بيوتها أخْصَاص، وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين، وفي أعلاها بيوت من الأخصاص كالغُرَف، ولها سطوح يُستراح فيها بالليل من أذَى الحَرّ، وبهذه القرية آثار قديمة تدلّ على أنها كانت مدينة قديمة، وأثرُ سُورها المُحدِق بها باقٍ إلى اليوم، وبها موضع فيه قبّة مشيّدة عتيقة، يُذْكر أنه كان منزل حَوّاء أمّ البَشَر ـ صلى الله عليها ـ عند توجّهها إلىٰ مكّةَ، فبُني ذلك المبنى عليه تشهيراً لبركته وفضله، والله أعلم بذلك».

وصف سكان جدّة:

ثم يأتي بعد ذلك إلىٰ وصف سُكان جُدّة نسباً ومعاشاً وعملاً:

«وأكثر سُكّان هذه البلدة مع ما يليها من الصحراء والجبال أَشْرَاف عَلَوِيّون: حَسَنِيّون وحُسَيْنيّون، وجَعْفَريّون ـ رضي الله عن سَلفِهم الكريم ـ وهم من شظف العيش بحالٍ يتصدّع له الجماد إشفاقاً، ويَستَخدِمون أنفسَهُم في كلّ مهنة من المهَن: من إكراء جمال إن كانت لهم، أو مبيع لبن أو ماء، إلىٰ غير ذلك من تمر يلتقطونه أو حَطَب يَحتَطِبونه، وربما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهنّ،

فسبحان المُقدّر لما يشاء، ولا شك أنهم أهل بيت ارتضى الله لهم الآخرة ولم يرتضِ لهم الدنيا، جعلنا الله ممن يَدين بحُبّ أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجسَ وطهرهم تطهيراً».

استغلال الحجّاج:

ويصف لنا ابن جبير طائفة من الناس تستغل الحجاج سرقة واعتداءً وتذيقهم من البلاء ما لا يوصف.

«وأكثر هذه الجهات الحجازيّة وسواها فِرَق وشِيَع لا دين لهم قد تفرقوا علىٰ مذاهب شتى، وهم يعتقدون في الحاج ما لا يُعتَقد في أهل الذمة، قد صَيّروهم من أعظم غَلّاتهم التي يستغِلونها: ينتهبونهم انتهاباً، ويسبّبون لاستجلاب ما بأيديهم استجلاباً. فالحاجّ معهم لا يزال في غَرامة ومؤونة إلىٰ أن ييسّر الله رجوعه إلىٰ وطنه».

إلى الحرم الشريف:

ثم يصف لنا ابن جبير طريقه من جُدّة إلىٰ مكّةَ وصفاً دقيقاً فيه سرعة البديهة، وأمانة النقل.

«وفي عَشيّ يوم الثلاثاء الحادي عشر من الشهر المذكور ـ ربيع الآخر ـ وهو في الثاني من شهر أُغُشْت، كان انفصالنا من جدة بعد أن ضمن الحاج بعضهم بعضاً، وثُبتت أسماؤهم في زمام[٤] عند قائد جدة علي بن مُوَفق، حسبما نفذ إليه ذلك من سلطانه صاحب مكة مُكثر بن عيسى....

وأسرينا تلك الليلة إلىٰ أن وصلنا القَرين مع طلوع الشمس، وهذا الموضع هو منزل الحاج، ومحطّ رحالهم، ومنه يُحْرِمون وبه يُريحون اليوم الذي يصبحونه،

فإذا كانوا في عشيةٍ رَفَعُوا وأسْرَوا ليلتَهم، وصبّحوا الحرم الشريف، زاده الله تشريفاً وتعظيماً.

والصادرون من الحجّ ينزلون به أيضاً ويُسْرُون منه إلىٰ جدّة، وبهذا الموضع المذكور بئر مَعِينة عذبة، والحاج بسببها لا يحتاجون إلىٰ تزود الماء غير ليلة إسرائهم إليه، فأقمنا بياضَ يوم الأربعاء المذكور مُريحين بالقَرين، فلما حان العشيّ رُحْنا منه مُحْرِمين بعُمْرَة، فأسرينا ليلتنا تلك، فكان وصولنا مع الفجر إلىٰ قَريب الحرم، فنزلنا مُرتقبين لانتشار الضوء.

ودخلنا مكّة،... وكان نزولنا فيها بدار تُعْرف بالنسبة إلى الحلال قريباً من الحرم، ومن باب السُدّة أحد أبوابه في حجرةٍ كثيرة المرافق المَسْكينَة مُشْرِفة على الحرم وعلى الكعبة المقدسة».

صفة المسجد الحرام:

ويعرج بنا ابن جبير ـ ونحن معه في زمانه داخل الحرم المكي الشريف ـ وصفاً لبنائه، وتعريفاً لعمرانه، وتبييناً لما حواه من هندسة.

«البيت المكرّم له أربعة أركان، وهو قريب من التربيع... إن ارتفاعه في الهواء من الصفْح[٥] الذي يُقابل باب الصفا، وهو من الحجر الأسود، ومنه ابتداء الطواف، ويتقهقر الطائف عنه لِيُمِرّ جميعَ بدنه به، والبيت المكرّم عن يساره، وأول ما يُلْقَىٰ بعده الركن العراقي، وهو ناظر إلىٰ جهة الشمال، ثم الركن الشامي، وهو ناظر إلىٰ جهة الغرب، ثم الركن اليماني، وهو ناظر إلىٰ جهة الجنوب، ثم يعود إلى الركن الأسود، وهو ناظر إلىٰ جهة الشرق، وعند ذلك يُتم شوطاً واحداً.

وباب البيت الكريم في الصفح الذي بين الركن العراقي وركن الحجر الأسود، وهو قريب من الحَجَر بعشرة أشبار مُحَقّقة، وذلك الموضع الذي بينهما من

صفح البيت يُسمّى المُلْتَزَم، وهو موضع استجابة الدعاء، والباب الكريم مرتفع عن الأرض بأحد عشر شبراً ونصف، وهو من فضة مُذهبة، بديع الصنعة، رائق الصفة، يستوقف الأبصار حُسناً وخشوعاً للمهابة التي كساها الله بيته، وعُضادتاه كذلك، والعتبة العليا كذلك أيضاً. وعلى رأسها لوح ذهب خالص إبريز في سعته مقدار شبرين، وللباب نَقّارَتا فضّة كبيرتان يتعلّق عليهما قُفل الباب، وهو ناظر للشرق، وسعته ثمانية أشبار، وطوله ثلاثة عشر شبراً، وغلظ الحائط الذي ينطوي عليه الباب خمسة أشبار».

ثم يصف لنا ابن جبير ـ ونحن معه في رحاب التوحيد ـ ما يحوي البيت الكريم من فرش وأعمدة ورخام، وهو في ذلك لا يُغادر ما تقع عليه عينه دون أن يدوّنه:

«وأول ما يلقى الداخل على الباب عن يساره الركن الذي خارجه الحجر الأسود، وفيه صندوقان فيهما مصاحف، وقد علاهما في الركن بُوَيْبان من فضة كأنهما طاقان مُلْصَقان بزاوية الركن.... وفي الركن الذي يليه وهو اليماني كذلك، لكنّهما انقلعا وبقي العمود الذي كانا ملصقَيْن عليه، وفي الركن الشامي كذلك وهما باقيان، وفي جهة الركن العراقي كذلك، وعن يمينه الركن العراقي وفيه باب يُسمّى بباب الرحمة يُصْعَدُ منه إلىٰ سطح البيت المكرّم، وقد قام له قَبْو فهو متّصل بأعلى سطح البيت، داخله الأدراج».

ثم يصف لنا ابن جبير طريق الطواف الدائري، وحجارته ذات الألوان المتعددة كأنها الرخام:

«وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنه الرخام حسناً، منها سُود وسُمر وبيض قد ألصِق بعضها إلىٰ بعض، واتّسعت عن البيت بمقدار تسع خُطًى إلا في الجهة التي تقابل المقام، فإنها امتدّت إليه حتّىٰ أحاطت به، وسائر

الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض، وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة،...».

أما كيف يسقى الحاج من ماء زمزم فيصف لنا ذلك ابن جبير بقوله:

«ويُخْرَج مع الليل لسقي الحاج في قِلال يسمّونها الدوارق، كل دَوْرَق منها ذو مقبضٍ واحد، وتَنّور بئر زمزم من رخام قد أُلصِقَ بعضه ببعض إلصاقاً لا تحيله الأيام، وأُفرِغ في أثنائه الرصاص، وكذلك داخل التنور، وحفّت به أعمدة الرصاص المُلْصَقَة إليه بلاغاً في قوّة لَزّه ورَصّه: اثنان وثلاثون عموداً قد خرجت لها رؤوس قابضة علىٰ حافة البئر دائرة بالتنّور كله، ودَوْرُه أربعون شبراً، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف، وغِلظه شبر ونصف، وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعَتُها شبر، وعمقها نحو شبرين، وارتفاعها عن الأرض خمسة أشبار، تُملأ ماءً للوضوء، وحولها مصطبة دائرة يرتفع الناس إليها ويتوضّأون عليها».

ثم يذكر لنا وهو يتحدّث عن الحجر الأسود، موقعه وصفته، وما يلاقيه الحاج من لُدونة عند تقبيله، ويصف الحجر الأسود تشبيهاً بالخال:

«والحجر الأسود المُبارك مُلْصَقٌ في الركن الناظر إلىٰ جهة المشرق، ولا يُدْرَى قدرُ ما دخل في الركن، وقيل إنّه داخل في الجدار بمقدار ذراعين، وسعته ثلثا شبر، وطوله شبر وعُقَد، وفيه أربَعُ قِطَع ملصقَة.

ويقال: إن القَرْمَطِيّ[٦] ـ لعنه الله ـ كان الذي كسرَه، وقد شُدّت جوانبه بصفيحة فضّة يلوح بصيص بياضها على بصيص سواد الحجر ورونقه الصقيل، فيبصر الرائي من ذلك منظراً عجيباً هو قَيْدُ الأبصار.

وللحَجَر عند تقبيله لُدُونة ورطُوبة يتنعّمُ بها الفمُ حتّىٰ يَودّ اللاثم أن لا يقلع فمه عنه، وذلك خاصّة من خواصّ العناية الإلهيّة، وكفى أن النبيّ ﷺ... قال:

«الركن يمين الله في الأرض يصافح بها عباده كما يصافح أحدكم أخاه».

وفي القطعة الصحيحة من الحجر مما يلي جانبه الذي يمين المستلم له ـ إذا وقف مُستقبِله ـ نقطة بيضاء صغيرة مُشرِقة تلوح كأنها خالٌ في تلك الصفحة المباركة، وفي هذه الشامة البيضاء أثَر: «إن النظر إليها يجلو البصر»، فيجِبُ على المقبّل أن يقصد بتقبيله موضعَ الشامة المذكورة ما استطاع».

ويتابع ابن جبير وصفه للحرم الشريف بذكر صوامعه.

«وللحرم سبع صوامع: أربع في الأربعة جوانب، وواحدة في دار الندوَة، وأخرىٰ علىٰ باب الصفا، وهي أصغرها، وهي عَلَم لباب الصفا، وليس يُصْعَدُ إليها لضيقِها، وعلى باب إبراهيم صومعة قد ذُكِرَت عند باب إبراهيم فيما بعد».

ثم يصف لنا ابن جبير كيفية كسوة الكعبة في ذلك الزمان بقوله:

«وكسوة الكعبة المقدسة من الحرير الأخضر، وهي أربع وثلاثون شُقة: في الصفح الذي بين الركن اليماني والشامي منها تسع، وفي الصفح الذي يقابله بين الركن الأسود والعراقي تسع أيضاً، وفي الصفح بين العراقي والشامي ثمان، وفي الصفح بين اليماني والأسود ثمان أيضاً، قد وُصِلت كلها فجاءت كأنها ستر واحد يعمّ الأربعة جوانب، وقد أحاط بها من أسفلها تكفيف مبني بالجص، في ارتفاعه أزيَد من شبر، وفي سعته شبران أو أزيَد قليلاً، في داخله خشب غير ظاهر، وقد سُمّرَت فيه أوتاد حديد في رؤوسها حلقاتُ حديد ظاهرة، قد أُدخِلَ فيها مَرَسٌ من القِنّب غليظ مفتول، واستدار بالجوانب الأربعة بعد أن وُضع في أذيال الستور شبه حُجَز[٧] السراويلات، وأُدخل فيها ذلك المَرَس، وخُيّطَ عليه بخيوط من القُطْن المفتولة الوثيقة، ومجتمع الستور في الأركان الأربعة مخيّط إلىٰ أزيد من قامة، ثم منها إلىٰ أعلاها تتصل بعُرًى من حديد يُدْخَلُ بعضها في بعض، واستدار أيضاً بأعلاها علىٰ جوانب السطح تكفيف ثانٍ، وقعت فيه أعالي الستور في

حَلَقات حديد علىٰ تلك الصفة المذكورة، فجاءت الكسوة المباركة مخيّطة الأعلى والأسفل، وثيقة الأزرار، لا تُخْلَعُ إلا من عام إلىٰ عام عند تجديدها، فسبحان مَن خلّد لها الشرف إلىٰ يوم القيامة، لا إله سواه».

ثم يصف لنا ابن جبير منبر الخطيب ـ خطيب المسجد الحرام يوم الجمعة ـ ويبين لباسه الذي يرتديه. وذكر الرايتين السوداوين اللتين تركزان في أول درجة من المنبر.

«وبإزاء المَقام الكريم مِنبرُ الخطيب، فإذا كان يوم الجمعة، وقَرُب وقت الصلاة، ضُمّ إلىٰ صفح الكعبة الذي يقابل المقام، وهو بين الركن الأسود والعراقي، فيُسْنَد المنبر إليه، ثم يُقبلُ الخطِيبُ داخلاً علىٰ باب النبيِّ ﷺ، وهو يقابل المقام في البلاط الآخذ من الشرق إلى الشمال، لابساً ثوب سَوَاد مرسوماً بذهب ومتعمماً بعمامة سوداء مرسومة أيضاً، وعليه طَيْلسان شَرْب رقيق، كل ذلك من كُسا الخليفة التي يُرْسِلُها إلىٰ خُطباء بلاده، يرفُلُ فيها وعليه السكينة والوقار، يتهادى رُوَيداً بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من قَوَمَة المؤذنين، وبين يديه ساعياً أحدُ القَوَمة، وفي يده عودٌ مخروط أحمر قد رُبط في رأسه مَرَسٌ من الأديم المفتول دقيق طويل، في طَرفه عَذَبة صغيرة ينفضُها بيده في الهواء نفضاً فتأتي بصوت عالٍ، يُسْمَعُ من داخل الحرم وخارجه، كأنه إيذان بوصول الخطيب، ولا يزال في نفضها إلىٰ أن يقرب من المِنبر، ويسمونها «الفَرْقَعَة»، فإذا قرُبَ من المنبر عرّج إلى الحجر الأسود فقبّله ودعا عنده، ثم سعى إلى المنبر والمؤذن الزمزَمي، رئيس المؤذنين بالحرم الشريف، ساعٍ أمامه، لابساً ثيابَ السواد أيضاً، وعلى عاتقه السيف يمسكه بيده دون تقلّد له، فعند صعوده في أول درجة قلّده المؤذن المذكور السيف، ثم ضرَبَ بنعلةِ سيفِه فيها ضربةً أسمع بها الحاضرين، ثم في الثانية، ثم في الثالثة، فإذا انتهى إلى الدرجة العليا ضرب ضربة رابعة، ووقف داعياً مُستقبِلَ

الكعبة بدعاء خفي، ثم انفتلَ عن يمينه وشماله وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فيردّ الناس عليه السلام، ثم يقعد، ويبادر المؤذنون بين يديه في المنبر بالأذان علىٰ لسان واحد، فإذا فرغوا قام للخطبة فذكّر ووعظَ وخشّع فأبلغ، ثم جلس الجلسة الخطيبية، وضرب بالسيف ضربة خامسة، ثم قام للخطبة الثانية فأكثر بالصلاة علىٰ محمدﷺ وعلى آله ورَضّى عن أصحابه، واختصّ الأربعة الخلفاء بالتسمية رضي الله عن جميعهم، ودعا لعميّ النبيّﷺ حمزة والعباس وللحسن والحسين، وَوالىٰ الترضّي عن جميعهم، ثم دعا لأُمهات المؤمنين زوجات النبيّﷺ، ورَضّى عن فاطمة الزهراء وعن خَديجةَ الكبرى بهذا اللفظ...

وفي أثناء الخُطبة تُركَزُ الرايتان السوداوان في أول درجة من المنبر، ويمسكهما رجلان من المؤذنين، وفي جانبي باب المنبر حلقتان، تُلقَى الرايتان فيهما مركوزتين، فإذا فرغ من الصلاة، خرج والرايتان عن يمينه وشماله، والفرقعة أمامه على الصفة التي دخلَ عليها، كأن ذلك أيضاً إيذان بانصراف الخطيب، والفراغ من الصلاة، ثُم أُعيد المنبر إلىٰ موضعه بإزاء المقام».

ثم يذكر لنا ابن جبير خصائص يمتاز بها الحرم المكي، والبيت العتيق لما له من بركة واهتمام سماوي وسمات نورانية:

«والبيت العتيق مبني بالحجارة الكبار الصُمّ السُّمر، قد رُصّ بعضُها علىٰ بعض، وأُلصِقَتْ بالعَقْد الوثيق إلصاقاً لا تُحِيله الأيام، ولا تقصمه الأزمان، ومن العجيب أن قطعة انصدعت من الركن اليماني فسُمّرت بمسامير فضة، وأُعِيدَت كأحسن ما كانت، والمسامير فيها ظاهرة.

ومن آيات البيت العتيق أنه قائم وسط الحرم كالبُرج المُشيّد وله التنزيه الأعلى. وحمام الحرم لا تُحْصى كثرة، وهي من الأمن بحيث يُضْرَبُ بها المثل، ولا

سبيل أن تنزل بسطحه الأعلى حمامة، ولا تحلّ فيه بوجه، ولا علىٰ حال، فترى الحَمام يتجلّى على الحرم كله، فإذا قرُبت من البيت عَرّجت عنه يميناً أو شمالاً، والطيور سواها كذلك.

ومن آياته أن بابه الكريم يُفْتَحُ في الأيام المعلومة المذكورة، والحرم قد غصّ بالخلق، فيدخله الجميع ولا يضيق عنهم بقدرة الله عزّ وجلّ ولا يبقى فيه موضع إلا ويُصلّي فيه كل أحد، ويتلاقى الناس عند الخروج منه، فيسأل بعضهم بعضاً: هل دخل البيت ذلك اليوم؟

فكلٌّ يقول: دخلتُ وصليتُ في موضع كذا وموضع كذا حيث صلّى الجميع، ولله الآيات البينات والبراهين المعجزات، سبحانه وتعالى.

ومن عجائب اعتناء الله ـ تبارك وتعالى ـ به أنه لا يخلو من الطائفين ساعةً من النهار، ولا وقتاً من الليل، فلا تجد من يُخبر أنه رآه دون طائف به، فسبحان من كرّمه وعظّمه وخلّد له التشريف إلىٰ يوم القيامة».

أبواب الحرم:

ثم نعرج مع ابن جبير عند ذكره لأبواب الحرم المكي الشريف معدّداً إياها مميزاً بينها.

«للحرم تسعة عشر باباً، أكثرها مُفَتّح علىٰ أبواب كثيرة، حسبما يأتي ذكره إن شاء الله:

باب الصفا: يفتح علىٰ خمسة أبواب، وكان يسمّى قديماً بباب بني مَخزُوم.

باب الخلقيين: ويُسمّى بباب جِيَاد الأصغر مفتّح علىٰ بابين، هو مُحْدَث.

باب العباس رضي الله عنه: هو يفتح علىٰ ثلاثة أبواب.

باب علي رضي الله عنه: مفتح علىٰ ثلاثة أبواب.

باب النبيّ ﷺ: يفتح علىٰ بابين.

باب صغير أيضاً بإزاء باب بني شيبة المذكور: لا اسم له.

باب بني شيبة: وهو يفتح علىٰ ثلاثة أبواب، وهو باب بني عبد شمس، ومنه كان دخول الخلفاء.

باب دار الندوة: ثلاثة[٨]، البابان من دار الندوة منتظمان، والثالث في الركن الغربي من الدار.

فيكون عدد أبواب الحرم بهذا الباب المنفرد عشرين باباً.

باب صغير بإزاء بني شيبة خَوْخة[٩] الأبواب: لا اسم له، وقيل: إنه يُسمّى باب الرباط، لأنه يُدخَل منه لرباط الصوفية.

باب صغير لدار العَجَلة: مُحْدَث.

باب السدّة: واحد.

باب العُمْرة: واحد.

باب حَزْوَرَة: علىٰ بابين.

باب إبراهيم عليه السلام: واحد.

باب يُنْسَب لحَزْوَرَة أيضاً: علىٰ بابين.

باب جياد الأكبر: علىٰ بابين.

باب يُنسَب لجياد أيضاً: علىٰ بابين، ومنهم من ينسب البابين من هذه الأبواب الأربعة الجيادية إلى الدقّاقين، والروايات فيها تختلف، لكنا اجتهدنا في إثبات الأقرب من أسمائها إلى الصحة، والله المستعان لا ربّ سواه».

مكّةُ وآثارها الكريمة، وأخبارها الشريفة:

ثم يصف لنا ابن جبير جغرافية مكّة، وما تتضمنها من تضاريس وتكوينات بيولوجية، وذكر أبوابها، ومدافن المسلمين فيها:

«هي بلدة قد وضعها الله ـ عزّ وجلّ ـ بين جبال مُحْدِقة بها، وهي بطن واد مقدس، كبيرة مستطيلة، تسع من الخلائق ما لا يُحصيه إلا الله عزّ وجلّ.

ولها ثلاثة أبواب: أولها باب المَعْل، ومنه يُخرَج إلى الجَبّانة المباركة، وهي بالموضع الذي يُعرف بالحَجون، وعن يسار المارّ إليها جبل في أعلاه ثنيّة عليها علم شبيه البرج، يُخْرَجُ منها إلىٰ طريق العُمْرة، وتلك الثنية تُعرف بكَداء، وهي التي عنى حسّان بقوله في شعره:

تُثِيرُ النقْعَ موعدُها كَداء[١٠].

وبالجَبّانة المذكورة مدفن جماعة من الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين قد دَثَرَت مشاهدُهم المباركة، وذهبت عن أهل البلد أسماؤهم... .

ثم باب المَسفل: وهو إلىٰ جهة الجنوب، وعليه طريق اليمن....

ثم باب الزاهر: ويعرف أيضاً بباب العُمْرَة، وهو غربي، وعليه طريق مدينة الرسول ﷺ وطريق الشام وطريق جُدّة، ومنه يُتَوجّه إلى التنعيم، وهو أقرب ميقات المعتمرين، يُخرَج من الحرم إليه علىٰ باب العمرة، ولذلك أيضاً يسمّى هو بهذا الاسم».

ويستمر ابن جبير في حديثه فيذكر مشاهدها المكرمة من قُبّة الوحي، والبقعة التي تبركت بولادة الرسول ﷺ على ثراها، أو دار الخَيْزُران التي كان النبيُّ يعبد الله فيها سرّاً، وجبل ثور وغير ذلك ذكراً جميلاً ويصفها وصفاً بارعاً.

«فمن مشاهدها التي عاينّاها قُبّة الوحي، وهي في دار خديجة أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ وبها كان ابتناء النبيّ ﷺ بها، وقبة صغيرة أيضاً في الدار

المذكورة فيها كان مولد فاطمة الزهراء ـ رضي الله عنها ـ وفيها أيضاً وَلَدتْ سَيّدَي شباب أهل الجنة: الحسن والحسين ـ رضي الله عنهما[١١] ـ وهذه المواضع المقدسة المذكورة مُغْلَقة مصونة قد بُنِيَت بناءً يلِيقُ بمثلها.

ومن مشاهدها الكريمة أيضاً مولد النبيّ ﷺ، والتربة الطاهرة التي هي أول تربة مسّت جسمه الطاهر، بُنَي عليها مسجد لم يُرَ أحفل بناءً منه، أكثره ذهبُ منزّل به، والموضع المقدّس الذي سقَط فيه ﷺ... يُفْتَح هذا الموضع المبارك فيدخله الناس كافةً متبركين به في شهر ربيع الأول ويوم الاثنين منه؛ لأنه كان شهر مولد النبيّ ﷺ وفي اليوم المذكور وُلِد ﷺ، وتُفتح المواضع المقدسة المذكورة كلها، وهو يوم مشهود بمكة دائماً.

ومن مشاهدها الكريمة أيضاً دار الخَيْزُران، وهي الدار التي كان النبيّ ﷺ يعبد الله فيها سرّاً مع الطائفة الكريمة المبادِرة للإسلام من أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ حتّىٰ نشر الله الإسلام منها... .

ومن الجبال التي فيها أثر كريم ومَشهد عظيم، الجبل المعروف بأبي ثور، وهو في الجهة اليمنية من مكّة علىٰ مقدار فرسخ أو أزيد، وفيه الغار الذي آوى إليه النبيّ ﷺ مع صاحبه ... .

وأكثر الناس ينتابون هذا الغار المبارك، ويتجنّبون دخوله من الباب الذي حدث الله ـ عزّ وجلّ ـ فيه، ويرومون دخوله من الشق الذي دخل النبيّ ﷺ منه تبرّكاً به، فيمتد المحاول لذلك على الأرض، ويبسط خدّه بإزاء الشق، ويولج يديه ورأسه أولاً، ثم يعالج إدخال سائر جسده، فمنهم من يتأتّى له ذلك بحسب قَضَافَة بدنه[١٢]، ومنهم من يتوسط بدنه فم الغار فيعضّه[١٣] فيروم الدخول أو الخروج فلا يقدر فيَنْشَب[١٤]، ويلاقي مشقّة وصعوبة، حتى يُتَناوَل بالجَذْب العنيف من ورائه.

الهوامش :

(١) تعسف الصحراء : خبط فيها علىٰ غير هداية .
(٢) المجهلة : الأرض التي لا يهتدى فيها .
(٣) المستحيلة : المتغيرة .
(٤) الزمام : لعله أراد السجل .
(٥) الصفح : الجانب والوجه .
(٦) يشير إلىٰ طاهر الجنابي وإغارته علىٰ مكة، وقتله الحاج، وقلعه الحجر الأسود، وحمله معه إلى البحرين .
(٧) الحجز / الواحدة حجزة : موضع التكة من السراويل .
(٨) أي يفتح علىٰ ثلاثة أبواب .
(٩) الخوخة : الباب الصغير في الباب الكبير .
(١٠) هو عجز بيت لحسان بن ثابت صدره : عدمنا خيلنا إن لم تروها .
(١١) في سائر التواريخ أن الحسن والحسين ولدا في المدينة .
(١٢) القضافة : النحافة .
(١٣) يعضه : أراد يمسك به .
(١٤) ينشب : يعلق .